حلب والموصل في العهد الأيوبي ، من خلال رحلة ابن جبير ((دراسة مقارنة في الجانب العمراني))

م.د. خالد يوسف صالح
معهد إعداد المعلمين

تاريخ تسليم البحث : ٢٠٠٨/٦/١ ؛ تاريخ قبول النشر : ٢٠٠٨/١١/٥

ملخص البحث :

الموصل وحلب من مدائن العرب التي كان لها دور حضاري وتاريخي متميز في نشر الحضارة العربية الاسلامية ، إذ يعتبران من أكبر المراكز العمرانية في الدولة العربية الاسلامية ، فهما لا يقلان أهمية عن بقية المراكز الأخرى التي لم يغفلها التاريخ بالذكر ، ولهما تاريخ حافل بامآثر على اختلاف العصور . والدراسة توضح التشابه في البناء العمراني بين المدينتين من خلال مشاهدات ابن جبير أثناء زيارته لكل من الموصل وحلب ،تضمن البحث أربعة محاور،المحور الأول موقع وتسمية وخطط المدينتين ، والمحور الثاني الآثار التاريخية ، والمحور الثالث المساجد والجوامع ، والمحور الرابع والأخير الأسواق والقيساريات .

Aleppo and Mosul in the Ayobbid Era Through Ibin Jubair's Trip : A contrasitive Study of the Architectural Side

Lecturer Dr. Kaled Yousif Saleh

Abstract:

Mosul and Aleppo are among the Arab cities that have played a unique cultural and historical role in distributing the Arabic and Islamic civilization. They are regarded as the largest cultural cities in the Arabic and Islamic states, so they are no less than the other centres which history didn't ignore observing them. Mosul and Aleppo have remarkable achievements along the course of different ages. This study reveals the similarity of architectural style in both Mosul and Aleppo through ibin

jubair`s trip observations during his visit to these two cities. The study includes four sections: the first section deals with the location, the naming and the structural planning of both cities, the second section tackles the archaeological sites. The third one is devoted to the mosques while the fourth, which is the last section, studies the markets of these two cities.

مقدمة:

تعد كتب الرحلات من أهم المصادر العربية الإسلامية التي أسهمت في وصف المظاهر الجغرافية والعمرانية ، مع كثير من المشاهدات والمعاينات التي صوّرت القيمة التاريخية بالرحلة ، وينتشر في العالم الإسلامي عدد من المدن التاريخية التي حافظت على نسيجها العمراني وعلى معالمها وسماتها الحضارية القديمة على الرغم من مرور وتعاقب الحضارات عليها ، لتحمل في ثناياها تراث الماضي وحضارته ولتحافظ على الطرز المعمارية والفنية بمختلف عصورها الإسلامية بشكل متوارث ومستمر دون انقطاع ولتضم في أرجائها عدداً كبيراً من المباني الأثرية ، التي يعود تاريخ بعضها إلى ما قبل الميلاد ، وبعضها الآخر يمتد إلى عدة عهود إسلامية .

ومن بين أهم المدن التاريخية في العالم الإسلامي مدينتا حلب والموصل لِما لهما من أهمية تاريخية وعمرانية وتفرّدهما بموقع استراتيجي متميز ، فمدينة حلب تُعد من أقدم المدن المأهولة في العالم ، والموصل إحدى قواعد بلاد العرب والإسلام ولها تاريخ حافل بالمآثر على اختلاف العصور .

تعرضُ الدراسةُ التشابه في البناء العمراني بين مدينتي الموصل وحلب من خلال مشاهدات ابن جبير أثناء زيارته لكل من المدينتين المذكورتين أعلاه .

يشتمل البحث على محاور أربعة ، تناول المحور الأول موقع المدينتين وتسميتهما وخططهما، وتطرق المحور الثاني إلى الآثار التاريخية، أمّا المحور الثالث فتضمن المساجد والجوامع ، وأخيراً ضمّ المحور الرابع الأسواق والقيساريات .

ـ موقع الموصل وحلب وتسميتهما وخططهما :

تقع مدينة الموصل على نهر دجلة مقابل مدينة نينوى وموقعها المنيع هذا يشرف على السهول الغربية التي تمر بها عدة طرق تصل بين جناحي الهلال الخصيب، فشيّدوا الحصن في هذا الموقع ، واتخذوا منه حامية تتولى الدفاع عن نينوى وحماية طرق المواصلات [١] .

وموضع مدينة الموصل يقع في منطقة سهلة خصبة تعد من الناحية التضاريسية والجيولوجية جزءاً من منطقة جغرافية واحدة متشابهة تمتد من وادي الفرات غرباً حتى دجلة شرقاً [٢] ، وقد منح هذا الموقع المتوسط المدينة أهمية كبيرة ، حيث يمثل قاعدة متقدمة لحضارات السهل وأرض الجزيرة [٣] .

وصف القزويني [٤] مدينة الموصل بأنها " المدينة العظيمة المشهورة التي هي إحدى قواعد بلاد الإسلام ، رفيعة البناء واسعة الرقعة محط رحال الركبان ". وسميت الموصل بهذا الأسم لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق ، وقيل وصلت بين دجلة والفرات ، وهي مدينة قديمة " [٥] ، ذكرها بطليموس " أنها تقع في الأقليم الرابع طولها تسع وستون درجة وعرضها أربع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة " [٦] .

ذكر ابن جبير أن الموصل " مدينة عتيقة ضخمة ، قد طالت صحبتها للزمن " [٧] . " وكان أول من عظمها وألحقها بالأمصار العظام وجعل لها ديواناً يرأسه ونصب عليها جسراً ونصب طرقاتها وبنى عليها سوراً مروان بن محمد بن مروان بن الحكم آخر ملوك بني أمية"[٨] .

أمّا مدينة حلب فتقع ما بين بلاد الشام وآسيا الصغرى شمالاً وترتبط بالطريق التجاري المار عبر حماة وحمص ودمشق والقدس في الجنوب الغربي تجاه البحر

---

(١) سعيد الديوه جي، تاريخ الموصل،المجمع العلمي العراقي(الموصل ، ١٩٨٢)، الجزء الأول ، ص ٩ .

(٢) مصطفى عباس الموسوي ، العوامل التاريخية لنشأة المدن العربية الاسلامية ، دار الرشيد ، (بغداد ، ١٩٨١) ، ص ٩٥ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٩٦ .

(٤) أبو زكريا بن محمد القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، (بيروت ، ١٩٦٠) ، ص ٤٦١ .

(٥) شهاب الدين ابي عبد الله بن عبد الله ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، دار صادر ، (بيروت ، ١٩٥٧) ، ٥ /٢٢٣ .

(٦) المصدر نفسه ٥ / ٢٢٤ .

(٧) أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير، رحلة ابن جبير ، (بيروت ، دار التراث ، ١٩٦٨) ، ص ١٨٨ .

(٨) الحموي : المصدر السابق ٥ / ٢٢٣ .

المتوسط إلى جانب ارتباطها مع مدن الجزيرة شرقاً [١].وقد أوضح الأصطخري [٢] أهمية موقعها بقوله : " أنها تقع على مدرج طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات، وأنها مدينة عظيمة واسعة وتقع مدينة حلب في الاقليم الرابع طولها تسع وستون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة " [٣].

تقع مدينة حلب في أقصى الشمال الغربي من الهضبة الواقعة في سورية الشمالية، وقد قامت في الأصل على الضفة اليسرى لنهر قويق ، وحلب إلى جانب كونها تتوسط منطقة زراعية تنتج الحبوب ، فهي ذات موقع إستراتيجي مهم من الناحيتين العسكرية والاقتصادية ، لقد تحكمت في طريق التجارة العالمي ، فهي إذن حلقة اتصال بين سورية وبلاد ما بين النهرين وفارس من جهة والأناضول وموانئ البحر المتوسط من جهة أخرى [٤] .

وتُعد مدينة حلب إحدى أهم المدن وأقدمها في العالم التي ما تزال مأهولة، وتتميز بموقع فريد [٥] . وامتاز التكوين الجغرافي لمدينة حلب بمواصفات إيجابية ، فهي تتألف من أرض واسعة يتوسطها تل كبير بنيت عليه قلعتها ، مما هيأ لها امكانيات التحصين والدفاع عنها ضد الهجمات التي استهدفتها [٦] ، وامتازت ــ في مقابل ذلك ــ بالخصوبة العالية لتربتها وفق تصور ياقوت الحموي [٧] .

أمّا تسميتها فقد أوردت المصادر التاريخية آراءً متعددة ومتباينة فيها [٨] ، فقد اعتمد بعضها على الأبعاد الدينية التي ترجع بالتسمية إلى الفترة التاريخية التي عاش بها النبي ابراهيم ﴿عليه السلام﴾ وارتكزت في احكامها على أن ابراهيم ﴿عليه السلام﴾ استوطن قرب التل الذي أقيمت عليه قلعة حلب حيث كان يرعى أغنامه ويعطي حليبها للفقراء فاقترن اسم حلب بعطاء ابراهيم ﴿عليه السلام﴾ الحليب [٩] .

---

(١) علي نجم عيسى ، حلب في العهد الأيوبي (٥٧٩ – ٦٥٨ هـ / ١١٨٣ – ١٢٥٨ م) (دراسة سياسية حضارية) أطروحة دكتوراه غير منشورة (جامعة الموصل، كلية الآداب، ١٩٩٩) ، ص ١٤ .

(٢) أبو اسحق إبراهيم بن محمد الأصطخري ، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر ألعال، مراجعة شفيق غربال (القاهرة ، دار القلم ، ١٩٦١) ، ص ٤٦ .

(٣) الحموي، المصدر السابق ٢ / ٢٨٢ .

(٤) محمود زين العابدين ، حلب عمارة المدينة القديمة (نماذج وابتكار) ، (حلب ، ٢٠٠٦) ، ص ١٠ .

(٥) المرجع نفسه ، ١٠ .

(٦) عيسى ، حلب في العهد الأيوبي ، ص ١٣ .

(٧) الحموي ، المصدر السابق ٢ / ٢٨٢ .

(٨) حول تلك الآراء ينظر : رحلة ابن جبير ، ص ٢٠٣ ؛ عزالدين محمد بن علي بن ابرهيم بن شداد ، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة،تحقيق دومنيك سورديل(دمشق ، ١٩٥٣)،ج١، ق١/١٥.

(٩) عيسى ، المرجع السابق ص ١٢ .

تُعد مدينة حلب من المدن التي يمتد وجودها إلى فترات تاريخية متطاولة ، ومن الطبيعي أن خططها كانت ملائمة بوصفها منطقة استقطاب سكاني ، وبعد حركة الفتوح الإسلامية نفّذ المسلمون فيها إضافات عمرانية مما استدعى التوسع في خططها العمرانية ، فعلى المستوى العسكري كانت حلب بحاجة إلى استحكامات دفاعية في أسوارها وقلعتها وأبوابها، لأنها إحدى المدن التي شكّلت قاعدة العمليات العسكرية ضد الصليبيين ، وقد ظهرت حاجاتها إلى المؤسسات الدينية والتعليمية أيضاً [١] .

ـ الآثار التاريخية :

أشار ابن جبير إلى أن بقاءهُ في مدينة الموصل كان لمدة أربعة أيام كاملة [٢] ، قضى معظمها في التجوال بين المعالم والمشاهد الإسلامية من جوامع ومراقد ومشاهد وقلعة وأسوار، حيث التفت مرة أخرى لأسوار هذه المدينة [٣] .

فوصف اولاً قلعة الموصل [٤] بقوله : " وفي أعلى البلد قلعة عظيمة قد رُصَّ بناؤها رصّاً، ينتظمها سور عتيق البنية مشيّد البروج ، وتتصل بها دور السلطان ، وقد فصل بينهما وبين البلد شارع متسع يمتد من أعلى البلد إلى أسفله ، ودجلة شرقي البلد ، وهي متصلة بالسور، وأبراجه في مائها ".

نالت أربعة قلاع هي قلعة القاهرة والموصل وحلب وحماة الأهمية في وصف ابن جبير وفصل القول في ذكر تحصيناتها ومواقعها المتميزة ، ولعل ذلك يعود إلى اعتبارات عسكرية[٥] . تقع القلعة على الأرض التي تشرف على دجلة وعين كبريت شمال الميدان ، وأقدم ذكر لها سنة ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م ، وفي عهد عماد الدين زنكي عُنِيَ بها فبناها قلعة واسعة تتسع للآلاف من الجيش وما يحتاجونه من عتاد ولوازم حرب ومؤونة[٦] ، ونالت اهتماماً آخر حيث رمَّمَ سورها وأحكم أبراجها وجدد ما هُدم من مرافقها فخر الدين عبد

(١) عيسى ، حلب في العهد الأيوبي ، ص ٩٧ .

(٢) ابن جبير ، المصدر السابق ص ١٩١ .

(٣) محمد نزار حميد طه الدباغ ، المشرق العربي الإسلامي من خلال رحلة ابن جبير (الاحوال السياسية والعمرانية ٥٧٨–٥٨١ هـ / ١١٨٢ – ١١٨٥ م) ، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة الموصل ، كلية الآداب ، ٢٠٠١) ، ص ١٤٤ .

(٤) ابن جبير ، المصدر السابق ص ١٨٨ .

(٥) الدباغ ، المصدر السابق ص ١٥٧ .

(٦) الديوه جي ، تاريخ الموصل ١ / ٢٣٦ .

المسيح وزير سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود [١] . ولما تولى الأتابكيون الموصل وجدوا السور الذي بناه العقيليون بحالة غير مرضية ، فجدد بناءه عماد الدين الزنكي وبنى للميدان سوراً يمتد من القلعة إلى باب سنجار [٢] .

ثم انتقل ابن جبير إلى سور الموصل ووصفه من خلال بيان حصانة مدينة الموصل عند وصولها حيث قال : هذه المدينة عتيقة ضخمة حصينة فخمة قد طالت صحبتها للزمن فأخذت أهبة استعدادها لحوادث الفتن [٣] . وعندما يتحدث عن أبراجها فإنه يتحدث عن تركيب أسوارها فيقول عن تلك الأبراج : " قد كادت أبراجها تلتقي انتظاماً لقرب مسافة بعضها من بعض وباطن الداخل منها ، بيوت بعضها على بعض مستديرة بجدارة المطيف بالبلد كله ... ودجلة شرقي البلد وهي متصلة بالسور وأبراجه في مائها " [٤] .

كان للسور عدة أبواب في العهد الأتابكي ، قال عنها ابن جبير : " وفرج الأبواب فيه بيِّنة " [٥] منها :

- الباب العمادي : فتحه عماد الدين زنكي سنة ٥٢٧ هـ / ١١٣٢م وهو يؤدي إلى الربض الأعلى من المدينة .
- باب سنجار : وهو من أقدم أبواب المدينة وأعظمها وأوسعها .
- باب كندة : وهو من الأبواب التي تقع غربي المدينة .
- باب الجصاصة : الجصاصة أو الجصاصون الذين يشتغلون بقلع المرمر وعمل الجص ، ويكثر المرمر في القسم الشمالي الغربي من المدينة .
- باب العراق : كان يؤدي إلى الجهة الجنوبية ــ جهة العراق .
- باب القصابين : من الأبواب التي كانت تؤدي إلى الجهة الجنوبية من المدينة .
- باب الجسر : وهو من أقدم أبواب الموصل يؤدي إلى الجسر .
- باب المشرعة : كان يقع قريباً من دور السلطنة ــ يؤدي إلى النهر ــ [٦] .

أما مدينة حلب فيذكرها ابن جبير [٧] أثناء زيارته لها موصفاً قلعتها بأنها " شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، معدومة الشبه والنظير في القلاع ... قاعدة كبيرة ، ومائدة من

---

(١) عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم ابن الأثير ، الكامل في التاريخ،(مصر ، ١٣٢٩ هـ) ٢٣٩/٩.
(٢) الديوه جي ، تاريخ الموصل ١ / ٢٣١ .
(٣) ابن جبير ، المصدر السابق ص ١٨٨ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٨٨ .
(٥) المصدر نفسه ، ١٩٠ .
(٦) الديوه جي ،المصدر السابق ، ١ / ٢٣٣ .
(٧) ابن جبير ، المصدر السابق ص ٢٠٢ .

الأرض مستديرة منحوتة الأرجاء ، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء ، فسبحان من أحكم تقديرها وتدبيرها،وأبدع كيف شاء وتصويرها ، عتيقة في الأزل ، حديثة وإن لم تـزل ... ". وتُعد قلعة حلـب من كبرى قلاع العالم وأقدمها وتقع وسط المدينة القديمة وتاريخ قلعة حلـب موغل في القدم [١] ، وتعتبر قلعة حلب أبرز وحدة عمرانية في المدينة فقد شكّلت النواة الرئيسة للتطور العمراني فيما حولها وهكذا فإن القلعة [٢] بذاتها كانت أقدم من المدينة[٣] ، قـال ابـن جبير [٤] : " إن من شرف هذه القلعة أنه يذكر أنها كانت قديماً في الزمان الأول ربوة يأوي إليها ابراهيم الخليل ، عليه وعلى نبينا الصلاة والتسليم ". وبـدأت المدينـة تتوسـع[٥]..... وأنشأت القلعة في تكوين أرضي مرتفع ، وصفه ياقوت الحموي[٦] بأنه " جبل عالٍ مدور " .

وقد أشـاد المؤرخون بأعمال الظاهـر غازي فـي القلعـة ورأوا أن المجموعـة المعمارية والتحصينات التي أقامها تشكل اعجازاً في التحصين في نسق العمارة العسكرية في القرون الوسطى ،فقد جدد حصونها وبنى منحدراتها التي تبدأ من السور[٦] . وقد وصف ابـن جبير [٧] سور القلعة قائلاً: "... ويطيف بهذين الجبين المذكورين سوران حصينان من الجانب الذي ينظر للبلـد ، ويعترض دونهما خندق لا يكاد البصر يبلغ مدى عمقـه والمـاء ينبـع فيه.وشأن هذه القلعة في الحصانة والحسن أعظم من أن تنتهي إلى وصفه ".

وفي ضوء الخطط العمرانية في مدينة حلب توزعت أعداد من الأحياء الـسكنية فـي داخل أسوارها وخارجها ، وانتشرت في حلب شبكة من الشوارع التي ربطت مركز المدينـة مع أبوابها وحظيت تلـك الشوارع باهتمام الأيوبييـن من خلال تنظيفها وتـشييد جوانبهـا وترصيفها [٨] . ولمدينة حلب سور وصفه ابن جبير[٩] بقوله : " وسورها الأعلى كله أبـراج منتظمة فيها العلالي المنيفة والقصاب المشرفة ، قد تفتحت كلها طيقاناً ، وكـل بـرج منهـا

---

(١) زين العابدين ، حلب عمارة المدينة القديمة ، ص ١٢ ــ ١٣ .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ١ / ق ١ / ١٨ ــ ١٩ .

(٣) ابن جبير ، المصدر السابق ص ٢٠٣ .

(٤) عبد الجبار ناجي ، دراسات في تاريخ المدينة العربية الاسلامية ، (مطبعة جامعة البـصرة ، ١٩٨٦) ، ص ٣٢٠ .

(٥) الحموي ، معجم البلدان ٢ / ٢٨٥ .

(٦) زين العابدين ، المرجع السابق ص ١٤ .

(٧) ابن جبير ، المصدر السابق ص ٢٠٣ .

(٨) محمد بن محمد العماد الكاتب ، البرق الشامي ، تحقيق : فالح صالح حـسين ، مؤسـسة عبـد الحميـد شومان، عمان ، ١٩٨٧ ، الطبعة الأولى ٥ / ١٣٨ ؛ عيسى ، حلب في العهد الأيوبي ، ص ١٠٦ .

(٩) ابن جبير ، المصدر السابق ص ٢٠٣ .

مسكون ، وداخلها المساكن السلطانية ، والمنازل الرفيعة المملوكية " . يذكر ياقوت الحموي أن سور حلب مبني من الحجر الأبيض [١] .

شكّل سور مدينة حلب الهيكل العمراني الذي يحيط بها من جميع جهاتها عدا الجهة الشرقية ، حيث كان موضع اهتمام الملك الظاهر ، الذي أدرك خطورتها العسكرية في بقائها من دون سور شرقي فشرع ببناء السور في تلك الجهة ، وازدادت حصانة السور الدفاعية من خلال بناء الأبراج عليه والتي بلغ عددها " مائة وثمانية وعشرين " برجاً يبلغ ارتفاع البرج منها " أربعين ذراعاً " [٢] ، وانتظم فيه عدة أبواب ، وهي باب قنسرين إلى الجنوب من حلب ، وباب العراق في الجنوب الشرقي ، وباب دار العدل جنوب القلعة ، وباب الأربعين شمال القلعة ، وباب النصر في الجهة الشمالية من حلب وبابا الجنان وأنطاكية في الجهة الغربية منها [٣] .

ومن الآثار التي وصفها ابن جبير أثناء زيارته لمدينة الموصل ما ورد في قوله : " وخص الله هذه البلدة بتربة مقدسة فيها مشهد النبي جرجيس ﷺ ، وقد بُنِيَ فيه مسجد ، وقبره في زاوية من أحد بيوت المسجد عن يمين الداخل إليه ، وهذا المسجد هو بين الجامع الجديد وباب الجسر، يجده المار إلى الجامع من باب الجسر عن يساره . فتبركنا بزيارة هذا القبر المقدس والوقوف عنده " [٤] ، ومن الآثار الأخرى التي زارها ابن جبير تل التوبة الذي قال عنه : " وهو التل الذي وقف به النبي يونس ﴿عليه السلام﴾ ، بقومه ودعا ودعوا حتى كشف الله عنهم العذاب ، " وفي هذا التل بناء عظيم هو رباط يشتمل على بيوت كثرة ومقاصر ومطاهر وسقايات ، يضم الجميع باب واحد ، وفي وسط ذلك البناء بيت ينسدل عليه ستر وينفلق دونه باب كريم مرصع كله ، يقال : أنه كان الموضع الذي وقف فيه النبي يونس ﷺ ،ومحراب هذا البيت يقال : أنه كان بيته الذي كان يتعبد فيه ، ويطيف بهذا البيت شمع كأنه جذوع النخل عِظَماً فيخرج الناس إلى هذا الرباط كل ليلة جمعه ويتعبدون فيه ... " [٥] .

---

(١) الحموي ، معجم البلدان ٢ / ٢٨٣ .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ١ / ق ١ / ١٩ ؛ عيسى ، حلب في العهد الأيوبي ، ص ١٠١ .

(٣) الحموي ، المصدر السابق ٢ / ٢٨٥ ؛ ابن شداد ، المصدر السابق ١ / ق ١ / ١٨ ــ ١٩ ؛ محب الدين محمد الحلبي ابن الشحنة ، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، (بيروت ، ١٩١٩) ، ص ٣٤ ؛ محمود ياسين أحمد التكريتي ، الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة ، (بغداد ، ١٩٨١) ، ص ٣٩٧ ــ ٣٩٩ ؛ عيسى ، المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(٤) ابن جبير ، المصدر السابق ص ١٨٩ .

(٥) ابن جبير ،المصدر نفسه ، ص ١٨٩ــ ١٩٠؛ محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار التراث العربي، بيروت، ١٩٦٨، ص ٢٢٨- ٢٢٩ .

ويوجد بيمارستان واحد في الموصل هو من بناء الأمير مجاهد الدين قيماز الذي بناه أمام جامعه " جامع مجاهد الدين " في الربض الأسفل واعتبره ابن جبير بيمارستاناً حفيلاً [١] . وتعد البيمارستانات من المنشآت الخاصة بتقديم الخدمات العلاجية والطبية العامة ،وواكب انشاءها النمو العمراني للمدينة الإسلامية [٢] . وفي أثناء زيارة ابن جبير للموصل وبشكل عابر على حماماتها ، فذكر أنه توجد الحمامات في الربض الأسفل من المدينة [٣] .

أما في مدينة حلب فقد انتشرت العديد من المشاهد والمقابر والتـرب منهـا مـشاهد الأنبياء والأولياء وصحابة الرسول ﷺ ، والمشاهد بذاتها تعد ظاهرة واضحة في العديد من المدن العربية الاسلامية ومنها مدينة حلب ، فهناك عدة مشاهد منها : مشاهد للامام علي بن أبي طالب ﷺ توزعت داخل مدينة حلب [٤] ، وفيها أيضاً مقابر عديدة ، ولعل من أهمها مقبرة النبي ابراهيم ﴿عليه السلام﴾ الواقعة جنوبي حلب [٥] . وفيها مجموعة من الترب [٦] وذكر ابن جبير وجود مارستان في حلب [٧] .

أما الحمامات فقد انتشرت في حلب وذكر ابن شداد قائمة طويلة في حمامات حلب الخاصة والعامة فقال : " وهذه الحمامات ... وهي من الكثرة لا تكفي من بحلب " [٨] .

ـ المساجد والجوامع والمدارس :

من خلال زيارة ابن جبير للمشرق العربي الاسلامي ودخوله إلى عدد من مدنه المهمة تكلم عن كثرة المساجد المنتشرة فيها [٩] . فعند زيارته لمدينة الموصل دخل إلى مسجدين فقط هما مسجد النبي جرجيس ﴿عليه السلام﴾ ، ومسجد النبي يونس ﴿عليه السلام﴾ الواقع شرقي دجلة قبالة الموصل [١٠] ، وذكر ابن جبير [١١] أن : " للمدينة جامعين : أحدهما جديد ، والآخر من عهد

---

(١) ابن جبير ، المصدر السابق ص ١٨٨ .

(٢) الدباغ ، المشرق العربي الإسلامي ، ص ١٩٠ .

(٣) ابن جبير ، المصدر السابق ص ١٨٨ ؛ الدباغ ، المرجع السابق ص ١٩٥ .

(٤) الحموي ، معجم البلدان ٢ / ٢٨٤ ؛ عيسى ، حلب في العهد الأيوبي ، ص ١١٩ .

(٥) محمد بن علي ابن الصابوني ، تكملة اكمال الاكمال في الأنساب والأسماء والألقاب، تحقيق : مصطفى جواد،(بغداد ، ١٩٥٧) ، ص ١٨٩ .

(٦) عيسى ، المرجع السابق ص ١٢١ .

(٧) ابن جبير ، المصدر السابق ص ٢٠٤ .

(٨) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ١ / ق ١ / ١٣٨ .

(٩) الدباغ ، المشرق العربي الاسلامي ، ص ١٦٩ .

(١٠) الدباغ ، المرجع نفسه ، ص ١٧٧ .

(١١) ابن جبير ، المصدر السابق ص ١٨٩ ؛ الحموي ، معجم البلدان ٥ / ٢٢٤ .

بني أمية ، وفي صحن هذا الجامع قبة ، داخلها سارية رخام قائمة ، قد خلخل جيدها بخمسة خلاخل مفتولة فتل فتل السوار من جرم رخامها ، وفي أعلاها خصة رخام مثمنة يخرج عليها أنبوب من الماء خروج انزعاج وشدة ، فيرتفع في الهواء أزيد من القامة كأنه قضيب من البلور معتدل ثم ينعكس إلى أسفل القبة... " .

وقد وصف ابن جبير الجامع المجاهدي الذي أنشأه أبو منصور قيماز بن عبد الله الزيني الملقب مجاهد الدين، وقال عنه : " وأحدث فيه بعض أمراء البلدة، وكان يعرف بمجاهد الدين ، جامعاً على شط دجلة ما أرى وضع جامع أحفل منه ، بناء يقصر الوصف عنه ، وعن تزينه وترتيبه،وكل ذلك نقش في الآجر ، وأما مقصورته فتذكر بمقاصير الجنة ، ويطيف به شبابيك حديد ، تتصل بها مصاطب تشرف على دجلة لا مقعد أشرف منها ولا أحسن ... " [١] . ولم يذكر ابن جبير عدد المساجد والجوامع في مدينة الموصل ، علماً أن هنالك مساجد وجوامع كثيرة أخرى ذكرتها المصادر والمراجع التاريخية على سبيل المثال الجامع النوري الذي أنشأه نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي سنة ٥٦٦هـ /١١٧١م[٢] .

وتحدث ابن جبير عن مدينة الموصل فذكر أنها قد حفلت بالمدارس أيضاً وأشار إلى وجود ست مدارس وصفها بأنها " تلوح كأنها القصور المشرفة " [٣] ، وهي على الترتيب : المدرسة النظامية ، والمدرسة الأتابكية ، والمدرسة الزينية (الكمالية) ، والمدرسة الكمالية القضوية ، ومدرسة الجامع النوري ، والمدرسة العزية المجاهدية [٤] .

أما حلب فقد شهدت حركة عمرانية واسعة في بناء المساجد والجوامع ولعل من أهم جوامع حلب الجامع الكبير الذي يقع في مركز المدينة ،وتقول بعض المصادر التاريخية إنّ الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك بناه ليضاهي به جامع دمشق الذي بناه أخوه الوليد بن عبد الملك في دمشق سنة ٨٧هـ / ٧٠٦م [٥] ، وهناك تشابه بين الجامع الأموي في الموصل والجامع الكبير في حلب، وكان موضع اهتمام الأيوبيين ، فقد استمرت صيانته على الدوام[٦]. ووصف ابن جبير الجامع بقوله : " وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها ،وقد أطاف بصحنه الواسع بلاط متسع مفتح كله أبواب قصرية الحسن إلى الصحن ، عددها ينيف على

(١) ابن جبير ، المصدر السابق ص ١٨٨ .
(٢) الديوه جي ، تاريخ الموصل ١ / ٣٣٨ .
(٣) ابن جبير ، المصدر السابق ص ١٨٩ .
(٤) الدباغ ، المرجع السابق ص ١٨١ .
(٥) زين العابدين ، حلب عمارة المدنية القديمة ، ص ٢٨ .
(٦) عيسى ، حلب في العهد الأيوبي ، ص ١٠٩ .

الخمسين باباً فيستوقف الأبصار حسن منظرها ، وفي صحنه بئران معينان ، والبلاط القبلي لا مقصورة فيه فجاء ظاهر الاتساع رائق الانشراح ،وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها في منبره، فما أرى في بلد من البلاد منبراً على شكله وغرابة صنعته ، واتصلت الصنعة الخشبية منه إلى المحراب فتجللت صفحاته كلها حسناً على تلك الصفة الغريبة ، وارتفع كالتاج العظيم على المحراب وعلا حتى اتصل بسمك السقف ، وقد قوّس أعلاه وشرف بالشُّرف الخشبية القرنصية ، وهو مرصع بالعاج والأبنوس ، واتصال الترصيع من المنبر إلى المحراب مع ما يليهما من جدار القبلة دون أن يتبين بينهما انفصال ، فتجتلي العيون منه أبدع منظر يكون في الدنيا ... " [١] ، وفي مدينة حلب جوامع أخرى منها المسجد الجامع في قلعتها [٢] .

لقد شكّلت أعداد المساجد والجوامع الماثلة في حلب في العصر الأيوبي صورة واضحة عن دورها وأهميتها في حياة الناس ، وكان الأيوبيون على الدوام متأهبين للجهاد ضد الصليبيين ، مما جعل من الجوامع مراكز توجيه ديني واصلاح اجتماعي بهدف الحفاظ على التوازن في البناء الاجتماعي في حلب [٣] .

ومما يدل على تشابه العمائر بين مدينة الموصل ومدينة حلب المنبر الذي صنعه محمد ابن علي الموصلي لجامع حلب في القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد مزين بزخارف مطبقة بقطع رقاق من العاج ، تؤلف وحدات زخرفية وكتابات جميلة وكتب عليه : " عمل العبد الفقير إلى الله محمد بن علي الموصلي " [٤] .

للمدارس أهمية في خطط الأيوبيين العمرانية في حلب [٥]. وقد وصف ابن جبير أحداها بقوله : " ويتصل به (المقصود الجامع المكرم) من الجانب الغربي مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسناً واتقان صنعة ، فهما في الحسن روضة تجاور أخرى ، وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناءً وغرابة صنعة ، ومن أظرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلي مفتّح كله بيوتاً وغرفاً ولها طيقان يتصل بعضها ببعض ، وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنباً، فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدلياً أمامها ، فيمد الساكن فيها يده ويجتنيه متكئاً دون كلفة ولا مشقة وللبلدة سوى هذه المدرسة نحو أربع أو خمس مدارس " [٦]. وهذا العدد من المدارس يقارب إلى عددها في مدينة الموصل .

---

(١) ابن جبير ، المصدر السابق ص ٢٠٤ .

(٢) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ١ / ق ١ / ٣٩ .

(٣) عيسى ، المرجع السابق ص ١١٠ .

(٤) سعيد الديوه جي ، أعلام الصناع المواصلة (الموصل ، ١٩٧٠) ، ص ١٩٦ ــ ١٩٨ .

(٥) عيسى ، المرجع السابق ص ١١٠ .

(٦) ابن جبير ، المصدر السابق ص ٢٠٤ .

وكان في حلب مجموعة من مدارس علوم الحديث النبوي الشريف ، وهي مدرسة الحديث ، يتضح من الجانب العمراني لمدارس حلب في العصر الأيوبي اقترانها بأسماء الأعيان الذين قاموا بتشييدها ، ولعل الوازع الذاتي في المكانة الاجتماعية يعد دافعاً واضحاً في هذا المجال واحترام الأيوبيين للعلوم بمختلف اختصاصاتها [١] .

ـ الأسواق والقيساريات والخانات :

ذكر ابن جبير وصف أسواق مدينة الموصل ، فقد شاهد أسواقها الواقعة في الربض الأسفل من المدينة [٢].قال : " وبني أيضاً داخل البلد وفي سوقه قيسارية للتجار، كأنها الخان العظيم ، تنغلق عليها أبواب حديد ، وتطيف بها دكاكين وبيوت،بعضها على بعض ، قد جلي ذلك كله في أعظم صورة من البناء المزخرف الذي لا مثيل له . فما أرى في البلاد قيسارية تعدلها " [٣] .

وكان في الموصل عشرات الخانات الكبيرة والساحات الواسعة التي تحط فيها القوافل والقيسريات والمحلات التجارية ، وأن عدد أسواق الموصل الكبيرة كانت ٣٦ سوقاً لكل بضاعة أربعة أسواق فأكثر وفيها قيسرية خاصة لبيع الروائح العطرية تسمى قيسرية المسك ، ومن القيسريات الكبيرة قيسرية الجامع النوري ، والقيسرية التي بناها مجاهد الدين قيماز المتوفى سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨م كانت من أجمل قيسريات البلاد [٤] . ويذكر ابن جبير وجود خانات في مدينة الموصل ، فعند وصوله إليها نزل بربضها في أحد الخانات بمقربة من الشط [٥] .

ويعتقد أحد الباحثين المحدثين أن التصميم العمراني لقيسارية الموصل التي وصفها ابن جبير لا تزال ماثلة في أسواق الموصل التراثية ، ويتميز ذلك التصميم بالامتداد الطولي المتوازي لوحدات متماثلة من الدكاكين المتلاصقة على جانبي طرق وممرات ضيّقة كانت تعلوها سقوف مقببة ذات فتحات جانبية للتهوية والإضاءة ، وهذا النمط المعماري ... أصبح السمة المميزة للأسواق التراثية في أغلب المدن العربية الإسلامية [٦] .

---

(١) عيسى ، حلب في العهد الأيوبي، ص ١١٤ .
(٢) ابن جبير ، المصدر السابق ص ١٨٨ .
(٣) ابن جبير ، المصدرنفسه ص ١٨٨ ــ ١٨٩ ؛ ابن بطوطة ، تحفة النظار ص ٢٢٨ .
(٤) الديوه جي ، تاريخ الموصل ١ / ٤٢٩ .
(٥) ابن جبير ، المصدر السابق ص ١٨٨ .
(٦) احمد قاسم الجمعة وآخرون ، عمائر الموصل وخططها ، بحث ندوة الموصل في مدونات الرحالة العرب والأجانب ، (الموصل ، مركز دراسات الموصل ، ١٩٩٧) ، ص ١٤ ؛ الدباغ ، المشرق العربي الاسلامي ، ١٨٦ .

وفي حلب تعد الجهة الغربية القلعة المركز الرئيس لأسواق المدينة إذ تمتد إلى بـــاب أنطاكية ولها أبواب حول الجامع الكبير ، وكانت مصممة بأشكال مستطيلة ومنتظمة حـــسب نوع المهن والحرف وتتصل فيما بينها وتمتاز بسقوفها الخشبية ، كما أنها كانت على شـــكل قيساريات تحتوي مجاميع كبيرة من الحوانيت ذات النقوش البديعة [١] .

وصف ابن جبير أسواق مدينة حلب قائلاً " وأما البلد فموضوعه ضخم جداً ، حفيـــل التركيب ، بديع الحسن ، واسع الأسواق كبيرها ، متصلة الانتظام ، تخرج من سماط صـــنعة إلى سماط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية ، وكلها مسقف بالخشب... فكل سوق منها تقيد الأبصار حسناً وتستوقف المستوفز تعجباً " [٢].

أما قيسارية حلب المحيطة بجامعها الكبير فقد أُعجب ابن جبيـــر بنظافتهـــا وكثـــرة حوانيتها التي هي بمثابة خزائن من الخشب البديع [٣] ، قال عنها : " وأما قيساريتها فحديقـــة بستان نظافةً وجمالاً ، مطيفة بالجامع المكرم ، ولا يتشوق الجالس فيها مرآى سواها ولو كان من المرائي الرياضية ، وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة ، قد اتصل السماط خزانة واحدة وتخللتها شُرَفْ خشبية بديعة النقش وتفتحت كلها حوانيت ،فجاء منظرها أجمـــل منظر وكل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرم " [٤] .

كما اتصفت أسواقها بالاختصاص إذ انفرد كل سوق ببيع صنف من الـــسلع ، ومـــن أشهرها سوق الحدادين ، وسوق العطارين ، وسوق الأساكفة [٥] ،وسوق البز الذي يتكون من عشرين دكاناً للوكلاء [٦] . ، وسوق النطاعين ، وسوق الخشابين ، وسوق الخيـــل والجمـــال والبقر [٧] ، وسوق الغنم .

ومن عجائب أسواق مدينة حلب سوق الزجاج ، فإن الإنسان إذا اجتاز بها لا يُريد أن يفارقها لكثرة ما يرى فيها من الطرائف العجيبة والآلات اللطيفة تُحمل إلى سائر البلاد للتحف والهدايا ، وكذلك سوق المزوقين فيها آلات عجيبة [٨] .

---

(١) عيسى ، حلب في العهد الأيوبي ، ص ١٠٧ .

(٢) ابن جبير ، المصدر السابق ص ٢٠٣ .

(٣) الدباغ ، المرجع السابق ص ١٨٦ .

(٤) ابن جبير ، المصدر السابق ص ٢٠٣ ــ ٢٠٤ .

(٥) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ١ / ق ١ / ١٤٦ ــ ١٤٧ .

(٦) الحموي ، معجم البلدان ٢ / ٢٨٤ ؛ كمال الدين عمر بن هبة الله ابن العديم ، زبدة الحلب في تاريخ حلب ثلاثة أجزاء، الجزء الأول تحقيق سامي الدهان، نشر المعهد الفرنسي للدراسات (دمشق ، ١٩٥٤)،١/٣٩.

(٧) ابن شداد ، المصدر السابق ١ / ق ١ / ١٤٧ .

(٨) القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ص ١٨٤ .

الخاتمــة

تُعَدّ الموصل وحلب من أهم المدن لِما لها من أهمية تاريخية ، حيث انفردتا بـــالتطور العمراني والموقع الستراتيجي والنمو السكاني ، وتميزت كلا المدينتين بموقع يطل على سهول خصبة ومنطقة زراعية واسعة واعتبرتا جزءاً من منطقـــة جغرافيـــة واحـــدة متشـــابهة إذ تشتركان في وقوعهما على طرق مواصلات مهمة للتجارة الدولية ، وارتباطها بأكثر المناطق المهمة من الناحية التجارية والدولية ، فضلاً عن قِدَم المدينتين من حيث النشأة وتم تمصيرهما وتخطيطهما مع قيام الدولة العربية الاسلامية ابتداءً بالعصر الراشـــدي والأمـــوي ، وتتمتـــع المدينتان بما تهيأ لهما من تحصينات دفاعية بوجود القلاع والأسوار والأبراج فيهمـــا ، وقـــد أولاهما الجغرافيون القدامى أهمية كبيرة ، حيث تذكر المصادر الجغرافية أنهما واقعتان فـــي اقليم واحد هو الأقليم الرابع ومتقاربتان ضمن امتدادهما على الأرض حيث يبلغ طـــول كـــل منهما تسع وستون درجة ، أما درجة عرضهما فهي الأخرى متقاربة ، وتحدثوا عن التـــشابه الكبير في أسوار المدينتين من حيث الأبراج والأبواب،ووجود مشاهد في كلا المدينتين للأنبياء والصحابة والأولياء واحتوائهما على بيمارستان واحد في كل منهمـــا مـــع كثـــرة الجوامـــع والمساجد والكنائس في كلا المدينتين ، حيث يوجد الجامع الأموي بالموصل وكذلك في حلب ووجود المدارس في كلا المدينتين ، فيوجد بالموصل ٦ مدارس ، وكذلك في حلب ، مما يدل على تشابه العمائر بين مدينتي حلب والموصل ، ولا ننسى المنبر الذي صنعه محمد بن علي الموصلي لجامع حلب بزخارف ونقوش كانت موجودة في جوامع الموصل .

كان وصف ابن جبير لكل من أسواق وقيساريات مدينتي حلب والموصل متـــشابهاً ، وأن التصميم العمراني لأسواق وقيساريات المدينتين التي وصفها لا تزال ماثلة في أســـواقهما التراثية ويتميز ذلك التصميم بالامتداد الطولي المتوازي لوحـــدات متماثلـــة مـــن الـــدكاكين المتلاصقة على جانبي طرق وممرات ضيّقة كانت تعلوها سقوف مقببة وخشبية ذات فتحـــات جانبية للتهوية والإضاءة ، وهذا النمط المعماري ... أصبح السمة المميزة للأسواق التراثيـــة في أغلب المدن العربية الاسلامية .

المصادر والمراجع

أولاً. المصادر المطبوعة :

- ابن الأثير : عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م)

١. الكامل في التاريخ ، (مصر، ١٣٢٩هـ) .

- الأصطخري : أبو اسحق ابراهيم بن محمد (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م)

٢. المسالك والممالك ، تحقيق : محمد جابر عبد العال ، مراجعة محمد شفيق غربال (القاهرة ، دار القلم ،١٩٦١).

- ابن بطوطة :أبو عبد الله محمد بن عبد الله محمد اللواتي (ت ٧٧٩ هـ /١٣٧٧م)

٣. رحلة ابن بطوطة ، المسماة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) ، (بيروت ، دار التراث ، ١٩٦٨) .

- ابن جبير : أبو الحسن محمد بن أحمد (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م)

٤. رحلة ابن جبير ، (بيروت ، دار التراث ، ١٩٦٨) .

- الحموي : شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي ياقوت (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م)

٥. معجم البلدان ،(بيروت ، دار صادر ــ دار بيروت ، ١٩٥٧) .

- ابن الشحنة : أبو الفضل محب الدين محمد الحلبي (ت ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م) .

٦. الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، تعليق يوسف بن الياس سركيس ، (بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩١٩) .

- ابن شداد : عز الدين محمد بن علي (ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م)

٧. الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة

الجزء الأول ، القسم الأول ، تحقيق : دومنيك سورديل (دمشق ١٩٥٣) .

- ابن الصابوني : محمد بن علي (ت ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م)

٨. تكملة اكمال الاكمال في الأنساب والأسماء والألقاب ، تحقيق مصطفى جواد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي (بغداد ، ١٩٥٧).

- ابن العديم : كمال الدين أبو القاسم عمر بن احمد (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م)

٩. زبدة الحلب من تاريخ حلب

٣ أجزاء ، تحقيق : سامي الدهان . الجزء الأول ،نشر : المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، (دمشق ، ١٩٥٤).

- العماد الكاتب : محمد بن محمد (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م)

١٠. البرق الشامي – الجزء الخامس ، الطبعة الاولى ، تحقيق فالح صالح حسين ، مؤسسة عبد الحميد شومان ، (عمان ، ١٩٨٧).
– القزويني : زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م)
١١. آثار البلاد وأخبار العباد ، (بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٠) .

ثانياً . المراجع العربية :

– التكريتي : محمود ياسين
١٢. الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة ، (بغداد ، دار الرشيد ، ١٩٨١)
– الجمعة وأخرون : أحمد قاسم وأخرون
١٣. عمائر الموصل وخططها ، (بحث ندوة الموصل في مدونات الرحالة العرب والأجانب) ، (الموصل ، مركز دراسات الموصل ، ١٩٩٧).
– الدباغ : محمد نزار حميد طه
١٤. المشرق الإسلامي من خلال رحلة ابن جبير (الاحوال السياسية والعمرانية ٥٧٨ – ٥٨١ هـ / ١١٨٢ – ١١٨٥ م) ، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة الموصل ، كلية الآداب ، ٢٠٠١).
– الديوه جي : سعيد
١٥. أعلام الصنّاع المواصلة ، (الموصل ، ١٩٧٠).
١٦. تاريخ الموصل ، الجزء الأول ،مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، (الموصل ، ١٩٨٢).
– زين العابدين : محمود
١٧. حلب عمارة المدينة القديمة (نماذج وابتكار) ، (حلب ، ٢٠٠٦).
– عيسى : علي نجم
١٨. حلب في العهد الأيوبي (٥٧٩ – ٦٥٨ هـ / ١١٨٣ – ١٢٥٨ م)(دراسة سياسية حضارية) ، أطروحة دكتوراه غير منشورة (جامعة الموصل ، كلية الآداب ، ١٩٩٩).
– الموسوي : مصطفى عباس
١٩. العوامل التاريخية لنشأة المدن العربية ، (بغداد ، دار الرشيد ، ١٩٨٢).
– ناجي : عبد الجبار
٢٠. دراسات في تاريخ المدينة الإسلامية ، مطبعة جامعة البصرة ،(البصرة ،١٩٨١).